

حوار حول كتاب الدر النثير في القراءات القرآنية

علم القراءات القرآنية واحد من أجلّ علوم القرآن الكريم إذ به تعرف وجوه الأداء المختلفة التي يسر الله بها قراءة كتابه العزيز: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}** القمر 17. وقد صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق مؤخرًا كتابٌ جليلٌ في هذا العلم يحمل عنوان «الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير» لعبد الواحد بن محمد المالكي (المتوفى سنة 705 هـ) في ثلاثة أجزاء.

قام بدراسة الكتاب وتحقيقه ووضع فهرسه الأستاذ الدكتور محمد حسان الطيان منسق مقررات اللغة العربية في الجامعة العربية المفتوحة بالكويت، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق وكان لنا معه هذا اللقاء.

• بداية أرجو أن تحدثنا عن أهمية هذا الكتاب ومكانته في عالم القراءات القرآنية إذا أردنا معرفة أهمية هذا الكتاب فلا بد لنا أولاً من إلقاء الضوء على متنه اعني كتاب التيسير في القراءات السبع الذي يعد من أشهر كتب القراءات القرآنية ومؤلفه أبو عمرو الداني (المتوفى سنة 444هـ) إمام فن القراءات وعلمها المشهور الذي شهد له القاضي والداني بتمكّنه من هذا العلم وأما فنه في هذا الفن فقال عنه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (80/18) «إلى أبي عمرو المنتهى في تحرير علم القراءات وعلم المصاحف مع البراعة في علم الحديث والتفسير والنحو وغير ذلك»، وقد أتى على كتاب التيسير حين من الدهر كان فيه أهم كتب القراءات فقال عنه الزركشي في كتابه البرهان: «وأحسن الموضوع للقراءات السبع كتاب التيسير لأبي عمرو الداني» ولا يكاد كتاب من كتب علوم القرآن يخلو من ذكره، واقتبل عليه القراء يتداولونه، يقرؤونه ويُقرئونه، ويتلون القرآن بمضمّنه، حتى اقترن اسمه بأعلامهم، إلى أن جاء الإمام الشاطبي أبو القاسم بن خيرة (المتوفى سنة 905هـ) فنظمه في قصيدته المشهورة «حز الأمانى ووجه التهاني» فصار الفرع أشهر من الأصل، لأن المنظوم أيسر حفظاً وأطرب وقعا. وفي ذلك يقول صاحبها:

وفي يُسرّها التيسير رمثُ اختصاره فأجنت بعون الله منه مؤملاً

وألفافها زادت بنشر فوائد فلفت حياء وجهها أن تفضلاً

ومن المعروف اليوم لدى القراء والمقرئين وجامعي القراءات أن الشاطبية أساس هذا العلم لا يكاد ويؤخذ إلا عن طريقها، ولكن ذلك كله لم يغض من شأن التيسير بل زاده شهرة على شهرته، واستمر اهتمام الناس به كبير، آية ذلك أن ابن الجزري (المتوفى سنة 833هـ) خاتمة المحققين في علم القراءات جعله على رأس مصادره في سفره الشهير «النشر في القراءات العشر» بل انه صنف عليه كتابا سماه «تخبير التيسير» أكمل فيه قراءات التيسير السبع بذكر الثلاث الزائدة عليها، وأضاف إليه شيئا من التصحيح والتهذيب، واستهله بقوله: «فلما كان كتاب التيسير للإمام الحافظ الكبير المتقن أبي عمرو الداني رحمه الله تعالى من اصح كتب القراءات وأوضح ما ألف عن السبع من الروايات...».

ولم يكن كتاب التحبير هذا بدعا بين الكتب فقد سبق بكتب جعلت من التيسير مادة لها، لعل من أهمها هذا الكتاب الذي عنيت به دراسة وتحقيقا، اعني كتاب الدر النثير.

• ما وجه هذه الأهمية في رأيكم؟

وجه الأهمية أن كتاب التيسير اتسم بالإيجاز والإجمال والاختصار، فحاء الدر النثير ليسط الكلام على ما أوجزه ويفصّل ما أجمله، ويشرح ما اختصره، بل يعلق أحيانا على ما ذكره، ويستدرك عليه ما فاته، ويصحح بعض ما أصاب نسخه من تصحيف وتحريف.

ويوازن بينه وبين كتابي التبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي (المتوفى سنة 437هـ) والكافي لابن شريح (476 هـ) معولا على كثير من كتب القراءة المعتمدة كالسبعة لابن مجاهد والإقناع لابن البادشي.

وهو إلى هذا كله قد امتاز بمزيتين اثنتين:

أولاهما: أنه استقصى ذكر أمثلة الأصول في القراءات كالإدغام الكبير، والإمالة، والتسهيل... واستوعب وجوهها المختلفة، ولا اعلم كتابا آخر يَشْرُكُهُ في هذه المزية حتى ليتمكن القول: إن أصول القراءات أصبحت فرشا في هذا الكتاب، لأنه يتتبع أمثلتها في القرآن كله كما يفعل المؤلفون في فرش حروف القراءات.

وثانيتها: انه جمع إلى شرف الرواية دقة الدراية، فلا تخلو مسألة من مسائله من الكلام

على العلل والتماس وجوه الحكمة وتقنين القوانين الصوتية الكامنة وراء كل وجه من وجوه الأداء المختلفة.

• معذرة يا سيدي ولكن ألا ترى أن هذا الكلام يحتاج إلى بيان وتوضيح وتمثيل؟

أنا أولى منك بالاعتذار، ولكن روح الداني في الاختصار والإيجاز طغت علي، فاسمح لي أن أتجاوزها إلى طبيعة المالكي في الشرح والتفصيل والتتمثيل فأبين انه - أي المالكي - تتبع كل شاردة وواردة في كتاب التيسير فراح يشرح غامضها، ويفصل مجملها، ويستقصي أمثلتها، ويعلل أحكامها. ويمد لها بما يجعلها ماثلة في الأذهان قريبة من عقول الطلبة والمبتدئين.

مثال ذلك ما فعله في باب الإدغام الكبير إذ انه استهله بذكر معنى الإدغام ثم بين أنواع الإدغام، ثم أفرد فصلين مُسهبين للكلام على مخارج الحروف وصفاتها ليخلص منهما إلى تصنيف أنواع الحروف من حيث الاختلاف والتقارب، ومن حيث القوة والضعف، ومن حيث قبول الإدغام وامتناعه باسطة الكلام على قوانين الإدغام وعللها الصوتية، وما يكون من الإدغام بين المثلين وما يكون بين المتقاربين حيث فصل أنواع إدغام المتقاربين فجعلها ثلاثة: الأول يدغم في مقاربه، ولا يدغم مقاربه فيه كالهاء والباء. والثاني: يدغم مقاربه فيه ولا يدغم هو في مقاربه كالحاء والحاء. والثالث: يدغم في مقاربه ويدغم مقاربه فيه كالقاف والكاف.

ثم يأتي - بعد ذلك كله - إلى ذكر مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير فيستقري مواضعه في القرآن الكريم وقد بلغت ألفاً وثلاثمائة واثنين وتسعين موضعاً مبينا مواضع إدغام كل حرف على حدة مع ذكر عدتها واختلاف القراء أو الرواة فيها إن وجد، ومواطن تكرارها في كل سورة ذكرت فيها من سور القرآن الكريم.

ودعني أمثل ذلك بإدغام الهاء في الهاء كقوله تعالى في سورة البقرة «فيه هُدى» حيث يدغم أبو عمر وبن العلاء برواية السوسي عنه الهاء الأولى في الهاء الثانية بعد إسكان الأولى بالطبع فلا يقرأ القارئ إلا هاء مشددة، وجملة المواضع التي أدغمت فيها الهاء بالهاء أربعة وتسعون موضعاً، يذكرها المالكي بالتفصيل على حين تقتصر كتب القراءات على ذكر مثال لها مع القاعدة في إدغامها.

والحق أن هذه العجالة لا يمكن أن تلمّ بكل مزايا الكتاب، فاسمح لي أن أعود مرة أخرى

إلى إجمال منهج المالكي في كتابه الدر النثير في خمسة أمور هي:

- 1 - الاستقصاء والشمول.
- 2 - التعليل وتوجيه الأحكام.
- 3 - التعليم وحل المشكلات.
- 4 - تعقب الماتن وتحقيق المتن.
- 5 - العناية بعلوم اللغة من نحو وصرف ولغة وصوت.

وكنت أعددت عن هذا المنهج بحثاً قدمته في المؤتمر الدولي الثالث لمركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية في مارس 2006 بعنوان منهج المالكي في شرحه الدر النثير.

• هل لهذا الكتاب عناية بالتجويد؟

تختلف كتب القراءات القرآنية عن كتب التجويد، وقلما وقفت على كتاب في القراءات له عناية بالتجويد، خلافاً لكتاب الدر النثير هذا فإن له عناية خاصة بأحكام التجويد تبدت في مواضع كثيرة من الكتاب، ولكنها أظهر ما تكون في إفراده فصلين كاملين لمخارج الحروف وصفاتها، وإفراده فصلاً كاملاً لذكر النون الساكنة والتنوين، وقد وقفت في هذه الفصول على تفصيلات وتعليقات صوتية لم أقف عليها في أي كتاب للتجويد. فمن ذلك كلامه على صفة الإطباق وربطه بين نطق الحروف المطبقة ورسمها حيث قال: «فالأحرف المطبقة: الطاء والظاء والصاد والضاد، سميت بذلك لانطباق ظهر اللسان مع الحنك الأعلى عند النطق بها، ولهذا كتب كل واحد منها في خطين متوازيين متصلين الطرفين اشعاراً بمخرجها»، فهو يشير هنا إلى أن اللسان يشكل مع قبة الحنك طبقاً مسدود الطرفين يشبه رسم هذه الحروف (ط ظ ص ض). ومن ذلك عقده مسألة في توجيه أحكام النون الساكنة والتنوين ذكر فيها عللاً صوتية قلما تجدها في كتاب من مثل قوله: «وأما القلب عند الباء فلأنه لما ثقل إظهار النون هناك لما تقتضيه النون من استحكام انفتاح الشفتين، واتصال طرف اللسان بمقدم الفم، واثبات الغنة، وكل ذلك مناف لما تقتضيه الباء من انطباق الشفتين وانفصال طرف اللسان من موضع النون وإبطال الغنة، أبدلوا من النون حرفاً متوسطاً بين النون والباء، لأنه يشارك النون بالغنة، ويشارك الباء في

المخرج وانطباع الشفتين» فهذا نص صريح على وجوب انطباع الشفتين لدى عملية الإقلاب خلافاً لما يصنعه بعض القراء اليوم من عدم إطباق الشفتين وهو ما لا يصح رواية ودراية.

• ولكنهم يصنعون ذلك قياساً على الإخفاء الشفوي الذي يحدث بين الميم والباء في مثل قوله تعالى «ترميهم بحجارة».

ومن قال إن الإخفاء الشفوي لا يوجب إطباق الشفتين؟!

إن هذا منافٍ لطبيعة الصوتين الميم والباء فكلاهما حرف شفوي لا يتأتى إلا بإطباق الشفتين، وقد صرح شيخنا الشيخ كريم راجح شيخ القراء في بلاد الشام بمنع تفرج الشفتين لدى النطق بالإخفاء الشفوي والإقلاب، وأنكر على كل من يفعل ذلك! بل إن مجلس شيوخ القراء في دمشق أصدر قراراً بهذا الخصوص، يجمع فيه القراء على وجوب إطباق الشفتين لدى النطق بالإخفاء الشفوي والإقلاب، أرجع إليه إن شئت في كتاب «علم التجويد أحكام نظرية وملاحظات تطبيقية» للدكتور يحيى عبد الرزاق الغوثاني.

• ألا ترى أن هذا الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد قرار يصدر ويضيع ذكره في ثنايا بعض الكتب؟

أجل فأنا على يقين بأن مجرد القرار والإنكار لا يكفي إذ لا بد من توعية تستخدم فيها كل وسائل الإعلام والإعلان لتعيد الحق إلى نصابه فقد استشرى هذا الخطأ في كلا الحكيمين- أعني عدم إطباق الشفتين في الإطباق والإخفاء والشفوي- ولعلي أكتب مقالاً موسعاً حوله إن شاء المولى سبحانه.

• فلنعد إلى كتاب الدر النثير، ونحن نتساءل عن طبيعة عملكم فيه وكم استغرق إخراجه وتحقيقه ودراسته من الوقت؟

إن عملي في كتاب الدر النثير ذو شقين الأول هو تحقيق النص المخطوط والثاني دراسة موسعة للكتاب كان القصد الرئيسي منها جلاء جهود المالكي الصوتية في هذا الكتاب وقد نلت بهذا العمل درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة دمشق بتقدير شرف عام 1994 وكانت الرسالة بإشراف الأستاذ الدكتور شاکر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق. والحق

أن الرسالة اقتصرت على تحقيق ثلث النص المخطوط مع الدراسة، ثم أكملت تحقيق الكتاب بتمامه بعد نيل الدرجة العلمية.

• ما المقصود بتحقيق النص المخطوط؟

المراد إخراجه مطبوعاً على نحو أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه، مع تقديم كل ما من شأنه أن يعين على قراءته من شرح غامض، وتوثيق نصوصه، وتخرّيج شواهد، وترجمة أعلامه، وإعداد فهارسه... وغير ذلك مما يتطلبه فن تحقيق النصوص، ولا شك أن المرحلة الأولى والأهم هي جمع نسخ المخطوط من مكاتب العالم ومعارضتها بعد اختيار النسخة الأم أو الأصل بينها، وقد جمعت لهذا الكتاب خمس نسخ خطية هي:

- 1 - نسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق (150 ورقة).
- 2 - نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة، رقم 260، (110 أوراق).
- 3 - نسخة متحف طوبقبو سراي باسطنبول، رقم 153، (186 ورقة).
- 4 - نسخة مكتبة إسميخان سلطان في المكتبة السليمانية باسطنبول، رقم 11، (83 ورقة).

5 - نسخة مكتبة كوبريللي باسطنبول، رقم 16، (236 ورقة).

وما المراد بالدراسة؟

توزعت دراستي لهذا الكتاب على أربعة أبواب تناولت في الأول عصر المؤلف المالكي وترجمته، وعرضت في الثاني لعلم الأصوات وعلم القراءات القرآنية والعلاقة بينهما، وبسطت الكلام في الثالث على منهج المالكي في هذا الكتاب، وأفردت الكلام في الباب الرابع للمادة الصوتية في هذا الكتاب، وهي بيت القصيد من كل هذه الدراسة التي بلغت نحو 500 صفحة.

• هل لك في تلخيص أبرز نتائجها؟

لكل باب نتائجه ولكني سأقتصر على ذكر أبرز نتائج الباب الرابع لأهميتها في ميدان الدراسات الصوتية والقراءات القرآنية ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

- 1 - جاء عرض المالكي للمخارج والصفات موافقاً، إلى حد بعيد، عرض المتقدمين لها

لاسيما سيبويه، بيد انه امتاز مع ذلك منها بمزايا أهمها:

- أ - عنايته بالتعليل الصوتي كما بدا ذلك جلياً في كلامه على الحروف المتوسطة.
 - ب - إيضاحه بعض الصفات المشككة لاسيما صفة الإطباق.
 - ج - شرحه ما غمض من عبارة سيبويه في الكتاب حول المخارج والصفات.
- 2 - تؤيد الدراسات الصوتية التجريبية كثيراً مما عرضه المالكي في المخارج والصفات وتكاد مخالفتها تنحصر في الأمور التالية:

- أ - عده النون الخفيفة حرفاً مستقلاً بلغت معه حروف العربية الثلاثين.
 - ب - إغفاله ذكر الحنجرة ووظيفة الوترين الصوتيين فيها.
 - ج - كلامه على مخرج الضاد، ووصفه هذا الصوت بالرخاوة.
 - د - وصفه القاف والطاء بالجهر.
- 3 - فرّق زمنياً بين الحرف المدغم والحرف المفرد والحرفين المفككين.
- 4 - وضع قانوناً للإدغام يحكم العلاقة بينه وبين سببه وهو تقارب الحروف، ثم حدد جملة من أصول الإدغام، وفصّل شروط الإدغام وموانعه العامة والخاصة.
- 5 - تكلم على قانون القوة في التأثير بين الحروف (الغلبة للأقوى) ثم حدد صفات القوة.
- 6 - جمع - فيما أورده من أحكام الإدغام - بين ما جاء وفق فصيح كلام العرب وما جاء في القرآن الكريم وفق قراءة أبي عمرو بن العلاء، مميّزاً كلاً منها، ومستوعباً جميع أمثلة الإدغام في القرآن على اختلاف الروايات واتفاقها.

- 7 - عني بعلى الإدغام الصوتية، ووافق في عرضها أحدث ما جاء في علم وظائف الأصوات من قوانين، كقانون الجهد الأقل *Le moindre Effort*، وقانون المماثلة *Assimilation*.

- 8 - أوضح العلاقة بين حروف المد والحركات (المصوتات الطويلة والقصيرة) مبيّناً أن حروف المد ما هي إلا امتداد للحركات السابقة لها.

- 9 - فرّق بين أنواع الزيادة في المد، وربطها بموجباتها، مبيّناً درجاتها وعللها.
- 10 - حصر مواطن القصر والزيادة في الحركات، ولقبها بأدق المصطلحات والتسميات

من إشماع، وإخفاء، وروم، واختلاس، وتمطيط، وصلوة.

11 - تكلم على أحوال الياء والواو الثلاث: المدية، واللين، والصامتة.

• هل من كلمة أخيرة؟

ليس لي إلا أن اشكر كل من أعان على إخراج هذا الكتاب أو أسهم في صنع معروف يتصل به بدءاً من أستاذنا العلامة الدكتور شاعر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ومروراً بالزملاء الكرام الأستاذ مروان البواب والدكتور المهندس محمد مراياتي والأستاذة عائشة الطيان والأستاذة صفاء العطار والسيد أسامة رجب، والسادة الدكاترة أعضاء لجنة الحكم، وانتهاء بمجمع اللغة العربية الذي اضطلع بنشر الكتاب بهذه الحلة القشبية.

وإن أنس لا أنس أستاذي العلامة احمد راتب النفاخ - رحمه الله - الذي جعلت هذا الكتاب إهداء له كفاء ماله من أياد بيضاء عليّ وعلى أجيال من طلاب العربية وعشاقها وأساتذتها وعلمائها.

رحمه الله وجزاه عنا خير ما جزى عالماً عن أمته ومعلماً عن تلامذته. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

